الأهداف العليا للتعليم في المجتمع والحياة

أعتقد أن الغرض الأول من كل جهودنا في التعليم، أن نضمن للفرد حياة معقولة قابلة للنمو والترقي، وأن نضمن للأمة –عن طريق هؤلاء الأفراد– مجتمعًا متناسقًا قابلًا للتعاون الإنساني مع كافة المجتمعات الإنسانية.

ولما كان هذا الغرض لا يتحقق، إلا إذا ضمنا للفرد انسجامًا مع روح العصر الذي يعيش فيه، ومع الظروف التي تحيط به، ومع الوسط الذي يتعامل معه، فإن صياغة عقلية الفرد –وبالتالي صياغة عقلية الجيل– بحيث تكون منسجمة مع روح العصر ومع الظروف ومع الوسط تصبح هي الهدف العام الذي يجمع الأهداف الأخرى.

والفرد الذي تنسجم عقليته مع هذه العوامل بالقياس إلى مصر... هو الفرد الذي يعرف مصر معرفة حقيقية، أي الذي يلم بكل مقومات القومية المصرية وبكل ظروف البيئة المصرية كذلك– بقدر ما تسمح كل مرحلة من مراحل التعليم.

ثم هو الفرد الذي يدرك بعد هذا أن مصر واحدة من ممالك العالم العربي التي توشك أن تكون وحدة جامعة –أي الذي يلم بكل العوامل المشتركة بين جميع بلاد الجامعة العربية من تاريخية إلى اقتصادية إلى ثقافية... بقدر ما تسمح كل مرحلة تعليمية كذلك.

ثم هو الفرد الذي يدرك بعد هذا وذلك أن الجامعة العربية –ومنها مصر– إنما هي وحدة في أسرة الإنسانية– أي الذي يدرك تشابك المصالح بين جميع بلاد العالم على اختلاف هذه المصالح وتعددها– بقدر ما تسمح به مرحلة تعليمه أيضًا.

ولكي يتم الانسجام بين الفرد وبين العوامل المتقدمة كلها ينبغي له كذلك أن يدرك روح العصر الذي يعيش فيه، والاتجاه الإنساني العام ما دامت مصر وما دامت الجامعة العربية كلها وحدة في الأسرة الإنسانية العامة.

والعناصر التي تؤلف روح العصر كثيرة، ولكننا نستطيع أن نرسم الخطوط الرئيسية لها في فقرات قليلة، فهي:

١- العدالة الاجتماعية:

وتختلف المذاهب الاجتماعي التي تريد تحقيق هذه العدالة ولكنها جميعًا تهدف إليها، وما دمنا قد اخترنا المبادئ الديمقراطية، فيجب إذن أن نتخذ وسائلها لتحقيق هذا العنصر في حياتنا.

٢- الاتجاه الواقعي:

فالتفكير التجريدي، والتصورات الرومانتيكية كلاهما لا يجدان مكانهما إلا بصعوبة في المجتمع الإنساني الحالي الذي يتجه بكلياته إلى الماديات والوقائع، ويعتمد أولاً على الإحصاء والتجربة، وما دمنا نعيش في هذا العصر فعلينا أن نزود الفرد بوسائل الحياة والتفكير فيه.

٣- الإحساس الأدبي:

وقد يبدو هذا العنصر غريبًا بعد العنصر الثاني... ولكن الواقع أن العالم اليوم بعد الحربين القريبتين، وبعد الاستغراق في الماديات، قد أخذ يتلفت على العنصر الأدبي في الحياة يحاول أن يقيم عليه بنيان الإنسانية، بعد ما طغت الماديات في القرنين الماضيين على تفكيره... وهذا العنصر الذي أخذ يبزغ مرة أخرى بين ضجيج الآلات، وقسوة الماديات لا ينبغي لنا إهماله –وبخاصة نحن الشرقيين– ولا سيما أن كل دعوات الاستقلال وكل دعوات العدالة الاجتماعية إنما تعتمد على هذا العنصر اعتمادًا حقيقيًا.

* * *

تلك هي أهم العناصر التي تؤلف روح العصر، وهي أهم الأهداف العليا للتعليم، وتلخصها فيما يلي:

١- أن يصاغ الجيل القادم بحيث يكون مصريًا (تحيا في نفسه الروح القومية)، عربيًا (يدرك الصلات المشتركة بين مصر والشرق العربي)، عالميًا (يدرك الأواصر المشتركة بين الجنس الإنساني كله والصلات المتشابكة بين أمم العالم).

٢- أن يكون فاهمًا لروح العصر الذي يعيش فيه مدركًا لعناصره الرئيسية.. العدالة الاجتماعية، الاتجاه الواقعي، الإحساس الأدبي.

وهذه العناصر حين تطبق في المدارس المصرية تترك آثارها الآتية:

أولًا– في المناهج:

١– يجب أن تبرز العناية بدراسة الموضوعات التي تتصل بالتاريخ المصري، والبيئة المصرية، وأن يبرز على وجه خاص نصيب مصر في حضارة العالم القديم والحديث، كما تبرز الممكنات المهيأة لمصر لتساهم في حضارة المستقبل من جهة، ولتزيد ثروتها وحضارتها الخاصة من جهة، مع التوسع في دراسة حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وينابيع ثروتها وعادات شعبها ووسائل معيشتها، بل خرافاتها وأساطيرها كذلك، فضلًا على شيء من آدابها في العصور المختفة، ويلاحظ أن تبرز نواحي العظمة وصور البطولة وحدها في سن الطفولة مع التوسع في ذكر الحقائق كاملة كلما تقدمت سن التلميذ ومعارفة العامة، فلا تعرض فترات الاحتلال وتعدد مزاياه، كما تصنع كتب التاريخ في مدارسنا المصرية.

٢– يجب أن تدرس بتوسع نسبي كل ما يختص بالشرق العربي –وبخاصة الإسلامي– وأن يستعرض الأواصر والصلات المشتركة القديمة والحديثة، كما تستعرض الممكنات الاقتصادية والثقافية والسياسية بين جميع بلاد الجامعة العربية، ويجب بوجه خاص أن يبرز نصيب الإسلام في التاريخ المشترك لهذه البلاد.

٣– يأتي في المرتبة الثالثة تزويد التلاميذ بمعلومات عن العالم اقتصاديًا وثقافيًا وتاريخيًا مع العناية بربط مصر والشرق العربي بهذه المعلومات على قدر ما تسمح الحقائق الواقعة، وعندما يستعرض تاريخ الحضارة الإنسانية ينبغي أن يبرز على وجه خاص نصيب مصر ونصيب الشرق العربي، وبخاصة نصيب الإسلام في بناء هذه الحضارة.

٤– يجب أن يكون لدى التلاميذ فكرة تنمو بنسبة نموهم عن الاتجاهات الاجتماعية في العالم، وعن موقف المجتمع المصري بوجه خاص، وأن يكون هذا جزءًا من مناهج الدراسة بوجه عام.

وواضح أن مناهج جميع المواد تساهم في تحقيق الأغراض السابقة، ولكنها تتوزع بصفة خاصة بين مناهج التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية والمعلومات العامة كما تنهض كتب المطالعة والقراءة الأدبية بنصيبها منها.

ثانيًا– في أساليب الدراسة وفي روح المدرسة ونظامها:

يجب الاتجاه إلى عقد صلة حقيقية بين المدرسة والحياة، فلا تكون جدران المدرسة حائلًا دون رؤية الحياة الحقيقية ومعرفة أساليبها، وطرق التعامل فيها.

وهذا يقتضي – فضلًا عن الموضوعات التي تقرر في المنهج– أن تدرس هذه الموضوعات بروح تطبيقية لا نظرية، فالأمثلة على الحقائق التي تعرض يجب أن تتخذ من واقع البيئة لا من محفوظات المدرس، ولا من تجارب قديمة ربما لا تنطبق تمامًا على البيئة الحاضرة.

وحينما نجعل حوادث السلف مادة لبث فكرة خاصة يجب أن نعرض نظيرًا لها في العصر القريب، أو أن نبين للتلاميذ مدى إمكان تطبيقها في الحياة الحاضرة –وبخاصة الموضوعات التهذيبية– حتى لا ندع التلميذ مضطربًا بين التعاليم النظرية المستمدة من حوادث وظروف سالفة وبين واقع الحياة الملموس.

وعلى قدر الإمكان –وبحسب نوع الدراسة– ينبغي أن ننقل الحياة الخارجية ومعاملاتها المادية وملابساتها الشخصية إلى النشاط المدرسي الداخلي بحيث يكون هذا مرانًا عمليًا عليه كما ينبغي أن ننقل المعاملات الخارجية وملابساتها إلى حجرة الدراسة ونجعلها موضعًا للتعليق والمناقشة وتكوين الآراء العملية.

والمدرس لا يملك ذلك ما لم تكن المناهج الموضوعة قد عقدت صلة في موضوعاتها بين الحياة الواقعة وبين المقررات المدرسية، مادام مكلفًا أداء واجب معين ودراسة مناهج معينة.

٢– يجب أن تكون الصلة بين التلميذ والمدرس، ثم بينه وبين المدرسة، مشجعة على إدراك مبادئ الديمقراطية الحقيقية بحيث يتمتع بمزاياها في مقابل احتمال تبعاتها وذلك يكون – على وجه خاص– بتكوين مجتمعات مدرسية شبيهة بالمجتمعات الخارجية على قدر الإمكان ثم الوجهة النظرية بدراسة حالة المجتمعات الديمقراطية في البلاد المتمدنة وربما كان المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى نموذجًا طيبًا لتقوية هذه الروح في نفوس تلاميذ مصريين تربطهم بهذا المجتمع أواصر وصلات كثيرة.

٣- علاوة على ما تتضمنه المناهج من دراسة حالة المجتمع المصري، والاتجاهات الاجتماعية في العالم، ينبغي أن يكون المدرس واقعيًا حين يشرح هذه الموضوعات، فيستمد شروحه من الوقائع والحقائق الملموسة في الشعب المصري، ولا يكتفي بجعل خطابية، ولا بنظريات مجملة.

٤- إذا تضمنت المناهج استعراضًا للطرق المعيشة في مصر، ومرافق العمل الاقتصادية كما ينتظر أن يتمخض عنها المستقبل، فينبغي أن تكون روح المدرسة وتعاليم المدرس مما يفتح استعدادات كل تلميذ للتوجه منذ الحداثة إلى حرفة أومرفق يناسبه، وتكون هذه فرصة لدراسة حقيقة ميول التلاميذ واتجاهاتهم، مع توجيههم إلى الوسائل العملية التي يصلون بها على تحقيق أغراضهم.

٥- وهذا الاتجاه بالموضوعات المقررة وبطريقة عرضها سيجعل من الأساتذة ومن المشرفين على إدارة المدرسة آباء روحيين لتلاميذهم، لأنهم سيتناولون معهم مشاكلهم الخاصة واتجاهاتهم الشخصية في صدد استعراض مرافق العمل ووسائله، وحاجات المجتمع إلى شتى الكفايات ووسائل استخدامها فيه.

وهذه هي الحلقة المفقودة في المدرسة المصرية، وفقدانها هو الذي يجعل فترة التلمذة منقطعة عن الحياة العامة، كما يجعل هناك جفوة بين التلميذ والمدرس وبينه وبين إدارة المدرسة، لأن الصلة بينه وبين المدرسة صلة جافة، لا يجد فيها مجالاً لاستعراض مشاكله الخاصة، ولا مشاكل المجتمع القريب الذي يعيش فيه.

وطبيعي أننا لا نستطيع تكليف المدرسة هذا كله إلا إذا ضمنا لها استقلالًا ذاتيًا من جهة، وراحة في العمل من جهة أخرى، ومدرسًا صالحًا من جهة ثالثة.

ومن هذا الاستعراض يتبين مدى بعد المدرسة بمناهجها ووسائلها الحالية عن تحقيق الأهداف العامة للتعليم، ويتبين كذلك مدى التغيير الشامل الذي يجب أن يتناول المناهج والكتب وطرق الدراسة وروح المدرسة ونظامها.

ولكي تكون روح هذا التغيير عملية أرى أن يشترك في وضع البرامج أناس من غير الفنيين في التعليم كرجال الأعمال والاقتصاديين والباحثين الاجتماعيين ورجال السياسة.

وليست برامج مدارس التجارة والهندسة والمدارس الفنية وحدها هي التي تحتاج لهؤلاء الرجال، فبرنامج المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية في حاجة على خبرتهم كذلك، ما دمنا نريد أن تصبح المدرسة قطعة من الحياة، وأن تحقق تعاليمها الانسجام الواجب بين الفرد والبيئة والعصر، هذا الانسجام الذي بدونه لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة.

وليكن عمل الفنيين في التعليم هو تنسيق هذه الاتجاهات وتحويلها إلى مناهج ووسائل في حدود ما تستطيعه المدرسة المصرية، واختيار القدر الممكن من المعلومات لكل مرحلة وكل فرقة، مع تنسيق هذه المعلومات وتوجيهها بحيث تكون وحدة متعاونة في جميع المواد في الفقرة الواحدة ثم في المرحلة الواحدة، تؤدي جميعها إلى هذه الأهداف مع اختلاف المواد، ثم للتوفيق بين كل مجموعة منها والحالة النفسية للتلميذ في كل مرحلة وفي كل فرقة، وهو عمل ليس بالهين حين يراد أداؤه على الوجه الصحيح[١].

---

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية ٩/ ١٩٤٥.